

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

**مناقشة هادئة لأطروحات عبد الوهاب المسيري:
عبد الوهاب المسيري وحتمية البيئة والبعد عن النص الشرعي**

عُني الدكتور عبد الوهاب المسيري بتفسير ظهور اليهود في السياسة الدولية؛ وعُني، كذلك، بتقديم رؤية نقدية للمادية الغربية؛ وفي إطار فض الاشتباك بين العلمانية والرافضين لها اقترح العلمانية الجزئية (علمانية السلطة لا المجتمع)؛ وضمنًا عرض الدكتور المسيري رؤية لنهوض الأمة الإسلامية.

وتكاد تكون "حتمية البيئة" هي الفكرة الأبرز عند المسيري، في قضاياها التي عني بها. بمعنى أن المسيري وقع تحت تأثير مقولات المستشرقين!! بمعنى أنه لم يخرج من سياق الاستشراق في فهم وتفسير الظواهر التي أخذت قدرًا من البيان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كظهور اليهود وتمكنهم، وتحكيم شرع الله، والتمكين للدين (نهضة الأمة).

أراد المسيري أن يقدم رؤية نقدية للصهيونية والحضارة الغربية من داخلهم فكانت النتيجة أن نزل بساحتهم وتحرك خلفهم. ويتضح ذلك من خلال إلقاء الضوء على المقولات التي استخدمها في قضاياها. وقد أتيت مخرجات الدكتور عبد الوهاب المسيري لأن فيها تناول لقضايا شرعية.. تناول لقضايا ذكرت باستفاضة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، تم تناولها بمقولات المستشرقين. أتيتُ المسيري لبيان مدى تغلغل مقولات المستشرقين حتى في عقول كبار المفكرين، ليظهر لمن يتأمل مدى عمق الجب الذي وقعنا فيه.

أولاً: تفسير ظهور اليهود في السياسة الدولية:

حال تفسيره لظهور اليهود في السياسة الدولية استخدم الدكتور عبد الوهاب المسيري عددًا من

المقولات والتي تعكس كلها تأثيره بالمقولة الرئيسية للمستشرقين، وهي "حتمية البيئة"، وأهم هذه المقولات هي¹:

- التعامل مع اليهود كجماعات تتشكل حسب الدول (البيئة) التي يتواجدون فيها.
- إنكار الهوية الدينية لليهود، بما في ذلك كبار المفكرين.
- إنكار وجود صفات عامة لليهود، ويفرق بين: اليهود واليهودية والصهيونية.
- إنكار المؤامرة أو التقليل منها.

وهذه المقولات، من ناحية تنطلق من المقولة الرئيسية للمستشرقين، وهي "حتمية البيئة"، ومن ناحية أخرى تتجاهل النص الشرعي مع أنه فصل كثيرًا فيما يتعلق باليهود والمؤامرة من الكافرين، وهذا بيان بما يناسب المقام:

في القرآن الكريم: حديث عن اليهود بصيغة العموم.. وبصيغة المضارع التي تفيد الاستمرار. وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، وقول الله تعالى: (يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)، وقول الله تعالى: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَيَمُرُّونَ بِالْحَبِيبِ إِذْ هُمْ يَنْصُرُونَ لِلَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِبُحْرَانٍ﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾، وقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمَوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَرُؤُوسَ الْأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدُوا وَعَاهِدَا بَعْدَهُ فَرَيقٌ مِّنْهُمْ﴾، ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَأْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾، وقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ

¹ هذه المقولات موجودة في موسوعته (اليهود، واليهودية، والصهيونية)، وموجودة بشكل مركز في كتابه "اليهود والحضارة الغربية"، ط. 2003. دار الهلال المصرية.

الْكِتَابِ لِيَرْتَضُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبَخُّؤُنَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ، وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ ، وقول الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ .

وفي عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، كان حالهم على ما هم عليه اليوم، وعلى ما كانوا عليه في أوروبا في "العصور الوسطى":

جماعات متناحرة، وهذا في تفسير قول الله تعالى: (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (المائدة:64)، وقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْدِي تَقَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴿٨٥﴾ (البقرة: ٨٥) فقد كان بعضهم (قينقاع والنضير) مع الخزرج وبعضهم (قريظة) مع الأوس، وحين ينشب القتال بين الأوس والخزرج يخرج كل فريق مع حليفه ويقتتلون، ويأسر بعضهم بعضاً، ثم حين تضع الحرب أوزارها يفدي كل واحدٍ منهم أخاه اليهودي المأسور منه أو من حليفه العربي من ماله الخاص لأن الفداء من دينهم، فأنكر الله عليهم أخذهم ببعض الكتاب (الفداء) وتركهم لبعضه (قتال بعضهم بعضاً)، والمقصود هنا أنهم كانوا متناحرين.. إلى حد الاقتتال فيما بينهم.

ولم تنتصر جماعة للثانية، فحين أخرج الله بني قينقاع لم يتحرك لنصرتهم إخوانهم من يهود النضير أو قريظة، وهم معهم على بعض أمتارٍ في المدينة المنورة، وكذلك حين أخرج الله بني النضير لم تنتصر لهم قريظة ولا يهود وادي القرى أو فدك، وحوصرت قريظة وقتلت صبراً ولم يتحرك يهود خيبر ووادي القرى وفدك لنصرتهم.

وكانوا، كما هم اليوم، منحرفين عن دينهم، ومع ذلك وصفهم الله باليهود ولم ينفصلوا عن الوصف كما يزعم المسيحي²، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ

² فكرته الأساسية أن اليهود غير اليهودية، غير الصهيونية، وذلك لعدم امتثالهم لتعاليم دينهم.. يقول: "الدين ديابجات واعتذاريات". يخرجهم من ملتهم مع أنهم ينتسبون إليها ويدافعون عنها علانية.

سَمَّعُونَ لِقَوْمِهِمْ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِدَلِيلٍ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَنْقُوتُ إِنَّ أُوْتِيْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذُرُوا ﴿١٦١﴾. ويقول الله تعالى: ﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَاهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ (المائدة: 161). ويقول الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ومن يومهم والمادية (الحسية).. والنفعية.. تسيطر عليهم. وذلك واضح في اتخاذهم العجل ومطالبتهم رسول الله موسى عليه السلام أن يجعل لهم "معبودًا" محسوسًا يعبدونه من دون الله!

﴿ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۗ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ ثم تجارتهم فيما لا يحل، واستحلالهم الربا وقد نُهوا عنه³، تجد أن حالهم من يومهم كحالهم اليوم، أو على الأقل وقت نزول القرآن الكريم. فعلم يدعي الدكتور المسيحي أن اليهود يتشكلون حسب البيئة التي يتواجدون فيها، وأن صفة اليهودية ليست إلا "ديباجة واعتذارية"!!؟

ويستدل على أن اليهود يتشكلون حسب البيئة التي يتواجدون فيها باختلاف اللغة واختلاف الحالة المادية واختلاف العدد من مكان لمكان، وهذا الاستدلال عجيب، فالثابت أنهم لم ينصهروا في آتون الدولة القومية ولا تفاعلات الكنيسة والسلطة، ومن الشواهد على ذلك، ما ذكره المسيحي نفسه على لسان بلفور (صاحب الوعد المشهور) حيث ذكر (بلفور) أن اليهودي دائماً ما يُقدِّم ولاءه للدين على ولاءه للوطن الذي يعيش فيه. وفي مذكرات شمعون بيريز، وهو علماني، ما يبين أن الإطار الديني حاضر عند الجميع حتى لو كان علمانياً مثله⁴. ومن الأمثلة كذلك المرأة التي أشعلت عزيمة المسيحي لكتابة الموسوعة.. تلك التي كانت تعتز بيهوديتها رغم أنها لا تلتزم بشيء من تعاليم الدين في مظهرها أو سلوكها العام.

وبدهي أن الصفات العامة لا تنطبق على جميع الأفراد، فللمجموع صفة عامة يُعرفون بها وقد

³ التفاصيل في كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي وقد سرد تاريخهم في الشام وهجرتهم للجزيرة العربية وأماكن انتشارهم ثم عقد فصلاً بعنوان: "الفصل السابع والسبعون: اليهود والإسلام"، وهو المراد الإشارة إليه هنا. ط. دار الساقى، ج12، ص119.

⁴ أعني شمعون بيريز في مذكراته (الشرق الأوسط الجديد) مع أنه علماني إلا أن الصبغة الدينية ظاهرة جداً في مذكراته.

يفارقهم آحاد الناس وتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ، ففي الآية الكريمة أن بعضهم قد يؤدي ما عليه مهما كان، وهؤلاء هم العلماء الربانيين الذين أسلموا حين سمعوا ببعثة محمد ﷺ⁵، وفيه بيان أن عامتهم يستحلون أموال العرب كونهم من غيرهم، وأنهم يكذبون على الله في الزعم بأن سلوكهم في أكل أموال غيرهم شرع شرعه الله عليهم.

كما أن الفرد يتكيف حسب الموقف (المصلحة الشخصية) في تعاملاته الفردية.. فللفرد عقل حين يكون منفردًا بنفسه أو بين خاصته وعقل آخر حين يكون مع الجموع (عقل جمعي) وقد كان آحاد قريش لا يتحدث لشخص النبي ﷺ إلا بخير، ويضعون عنده الأمانات، ولكنهم حين يجتمعون يقولون إفكًا من القول وزورًا، ولذا وعظهم الله الخلاق العليم، سبحانه وعز وجل، بواحدة أن يتفكروا وهم مثني وفرداى يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ، لذا طبعي جدًا أن يُظهر الفرد في تعاملاته الشخصية توافقًا مع من حوله ولكنه حين يكون منتميًا لمجموع آخر فإنه ينصره سرًا وعلانية.. قدر استطاعته وقدر إيمانه⁶.

وإن ظهور صفة غالبية في مجتمع ما يرجع بالأساس لطبيعة النخبة التي تسود في هذا المجتمع، فدائمًا هناك متبوع وتابع ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ ، فالمجتمع دائمًا يتغير وفقًا لحال من يمكنهم الله من الفعل. فنحن نعيش في "عالم متغير" .. نعيش فيه "عالم من صنعنا". "المجتمعات تبني" .. و"الهويات تبني" من قبل النخبة كما يبني البيت. وعامة الناس تبع لهؤلاء. بمعنى أن الناس أبناء من يعمل على تغيير البيئة. وكل بيئة (مجتمع) تتغير على المدى المتوسط والقصير. وحتميات البيئة لا تنطبق إلا على العامة فقط ولفترة قصيرة ثم تتغير هذه

⁵ جاء في كتب التفسير أن الذي أدى ما عليه (قنطار) هو عبد الله بن سلام ﷺ عنه، وأن غيره من الأخبار أكل أموال الناس ولم يؤديها لهم. بمعنى أن الذي أدى هو المتدين حقيقة.. هو من أسلم حين سمع بالنبي ﷺ.

⁶ وقد عالج هذا الأمر في دراسة حديثة جوستاف ليون في كتابه "سيكولوجية الجماهير"، وأيضًا كتاب "المؤمن الصادق" لإيرك هوفر، وفيه يعرض كيف يتخلى الفرد عن عقله حين ينتمي لمجموع آخر (جماعات وتنظيمات).

الحميات في سنوات قليلة فكل جيل يشهد ثلاثة تغيرات في الغالب. وهذا مشاهد في كل مكان، فلم تكن المدينة ومكة والجزيرة العربية قبل بعثة محمد ﷺ كما كانت قبل بعثته ﷺ. وقد أشبعنا هذه المسألة نقاشاً في أماكن متفرقة من هذا البحث وفي بحث العقاد وغيرهما. ومن أعجب المقولات التفسيرية التي قدمها الدكتور المسيري لظاهرة الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي ودعمه لإنشاء كيان صهيوني مقولة "الفائض السكاني" في أوروبا، يقول: أرادت أوروبا أن تتخلص من فائض السكان لديها من اليهود فأنشت لهم الكيان الصهيوني في فلسطين، وأرادت أن تتخلص من الفائض السكاني عندها (من أبنائها) فقامت باحتلال دول الجنوب والشرق!! (الصهيونية والحضارة الغربية، ص 29-32)

وبقليل من التأمل نجد أن الدكتور المسيري تعجل في تبنيه هذه المقولة ذات القدرة المحدودة جداً على التفسير، فقد كان أول أهداف الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي هو استعباد الناس (الأفارقة السود) ونقلهم لبلاده لسد العجز في الخدمات، ولا زالوا لليوم يستقبلون الملايين من الناس وخاصة أصحاب الحرف والكفاءات الخدمية. كما أن أكثر اليهود لا زالوا في أوروبا والولايات المتحدة ولو كان الهدف هو التخلص منهم، كما أشيع، لفعلوا بهم ما فعله هتلر، أو كما فعلوا هم بالهنود الحمر، أو كما فعلوا هم بالكنيسة والإقطاعيين فقد سلبوا هؤلاء قوتهم مع أنهم كانوا أشد بأساً من عصابات يهود.

وتبني الدكتور المسيري مقولة د. جمال حمدان بأن الاستعمار صناعة أوروبية صدرت للخارج ولم تمارس في الداخل الأوروبي باستثناء "جبل طارق"⁷!

وهذا الكلام عجيب، وذلك أن أشهر الأحداث في تاريخ أوروبا الوسيط والحديث هو محاولتهم استعمار بعضهم، وكلنا يعرف ويتحدث عن حروب نابليون. ألم تكن احتلالاً؟!، والحرب العالمية الأولى والثانية. ألم يحتل هتلر فرنسا؟!!

وكذلك ما يحدث الآن من الروس تجاه أوكرانيا!!

بعض كبار المثقفين (كالمسيري وحمدان والعقاد) يرصدون الظواهر ويفسرونها من مقولات تبلورت

⁷ ص 27 من كتاب "الصهيونية والحضارة الغربية"

بداخلهم نظريًا دون أن يتأملونها جيدًا.. ربما يتبنون المقولات لغرابتها أو كونها مقولة جديدة على المتلقين، بمعنى أنهم يستمدون شرعيتهم من تبني الغريب أو الجديد، وهذا لا يفيد كثيرًا وينقطع بعد قليل، وفي حقيقته تبعية للثقافة السائدة. مثال ذلك: مقولة: أن العباقرة هم الذين صنعوا التاريخ عند عبّاس العقّاد، وأن الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي تصدير للفائض السكاني هذه التي زعمها جمال حمدان، وانفصال الصهيونية واليهود واليهودية كما يزعم المسيري. وإني أعظك أن لا تعير مشهورًا عقلك. لا بد أن تتأمل جيدًا فيما يقول. فليس كل ما اشتهر جيد البضاعة. فعامّة ما اشتهر إنما اشتهر بدعم الأدوات السلطوية والغربية. وهذه المقولات، رغم شهرتها، محدودة القدرة في رصد الظواهر وتفسيرها⁸، ويأتي الإشكال من تعميمها⁹.

وفي سياق إنكار البعد الديني (الهوية الدينية) والحديث عن حتميات بيئية أوجدت اليهود في فلسطين والسياسة الدولية استدعى الدكتور المسيري أحد المقولات محدودة القدرة على التفسير، وهي مقولة أن الكيان الصهيوني كيان وظيفي (جماعة وظيفية) غرسه الغرب بيننا ليمنع تكون دولة إسلامية (أو عربية) قوية تحول دون حصول الغرب للموارد اللازمة لصناعته والأسواق اللازمة لبيع بضائعه. يقول: الغرب مندفع بتحقيق مصالحه المادية فقط، ويجادل عن هذا كثيرًا. وألف كتابًا كاملاً حين سمع بعضهم يتحدث عن أن بعض أسباب غزو الولايات المتحدة للعراق 2003م أسباب دينية¹⁰.

وبقليل من التأمل نجد أن "المصلحة" تتشكل بناءً على منظومة القيم، فكل واحدٍ مصالحه حسب عقائده. وقد كان الناس في الجاهلية ينفقون أموالهم وأوقاتهم وربما دماءهم بحثًا عن السمعة والذكر الحسن؛ وفي عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، وصحابته، رضوان الله عليهم، كانوا يبحثون عن عطاء الله ورضوان الله، وانظر إلى ما وصفهم الله به في أكثر من موضع من كتابه

⁸ ينظر: "مقولات ابن خلدون ذات قدرات تفسيرية محدودة ومضللة"، لمحمد جلال القصاص: <https://2u.pw/4cQX25>

⁹ من المواضيع التي تستحق البحث: تبعية المثقف العربي للثقافة الغربية، وخاصة أولئك الذين يتحدثون في الظواهر الدينية، وقد قطعت شوطًا في مناقشة العقاد في كتابٍ مستقل، ومناقشة المسيري وعدد آخر من المنتسبين للثقافة الإسلامية في بحثي عن السيرة النبوية (وما محمد إلا رسول).

¹⁰ جمع أفكاره حول هذه النقطة في بداية كتابه "الصهيونية والحضارة الغربية"، ط. دار الهلال 2003.

الكريم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾^ط. وحين سيطرت العلمانية المادية تحرك الناس خلف أهداف مادية.. استهلاكية. ولذا فإن مقولة "المصالح تتحكم في السلوك" مقولة قاصرة لا تصلح لتفسير الإمبريالية الغربية بشكل جيد، ولا تصلح، كذلك، لتفسير سلوك الأفراد بشكل دقيق. فخلف المصلحة المادية المعاصرة منظومة قيم هي التي جعلتها في المقدمة؛ والمقولة الأصح لتفسير سلوك الدول الغربية في العلاقات الدولية هي الاستحواذ على أسباب القوة والنفوذ، ظناً منهم أن الموارد محدودة وأن السكان يزدادون يوماً بعد يوم زيادةً تربو على الموارد¹¹، والله يقول: ﴿وَيَذَرِكُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا﴾. ونستطيع أن نقرر بوضوح أن العلمانية حوّلت الناس من البحث عن الفضيلة إلى البحث عن القوة/النفوذ/السلطة، فالمنافسة اليوم، في جميع المستويات، على تحصيل أسباب القوة والنفوذ. فالدول تتنافس على أسباب القوة والنفوذ، وكذلك الأفراد في تفاعلاتهم اليومية، وخاصة أولئك الذين اصطبغوا بالصبغة العلمانية. وقد انتبه المفكر الفرنسي ميشل فوكو لهذا الأمر في مستوى السلطة وأكثر من الحديث عن استراتيجيات السلطة في السيطرة [التأثير] على المجتمع، سواءً عن طريق العقاب المباشر بالسجن والتعذيب، أم من خلال مؤسسات الدولة [منظومة العقاب الخفي]، أم عن طريق المعرفة [التوزيع القهري للقيم بأدوات الدولة.. المؤسسات التعليمية والإعلامية]، أو من خلال الخطاب الديني الموافق للسلطة أو المعارض لها أحياناً.

والحقيقة أن أهل السلطة وحدهم ليسوا هم الذين يبحثون عن السيطرة والنفوذ، فهذا المرض أصاب جميع من تأثر بالعلمانية.. أولئك الذين لا يؤمنون حقاً بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها كما جاء في الحديث، يقول الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^{٣٢} ، ويقول الله تعالى:

¹¹ وهذا أكثر ما يتردد بينهم (محدودية الموارد وزيادة السكان) إيماناً بما ذكره "توماس ملثوس" قبل مئتي عام، والله يقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^{٣١} ، والله يقول: ﴿وَيَذَرِكُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا﴾. وعند الغربيين ما يضاد وينقد هذه النظرية: ينظر: "صناعة الجوع (خرافة الندرة)"، لفرانسيس مور لاييه و جوزيف كولينز، ترجمة أحمد حسان، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984م).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^{٤٤} ، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^{٤٥} ، وفي الحديث: "إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي ، أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا ، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ".

وبدهي أن سيطرتهم على أسباب القوة والنفوذ أدى إلى فرض التبعية على غيرهم في مجالات الحياة المختلفة: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والعسكرية. بل أدى إلى دمج غيرهم فيهم. وبعد "الحرب الثانية" سيطرت الولايات المتحدة على قيادة العالم وأحدثت شيئاً جديداً لم يعرف من قبل، وهو جعل الحفاظ على أمنها هي هدفاً لغيرها. ويظهر هذا الهدف في السياسة الخارجية تحت مسمى "الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة".

وذكر¹² نشوء الدولة القومية وكيف أنها تدرجت حتى أصبحت مرجعية نهائية، ومصدر الشرعية الوحيد، والركيزة الأساسية للمجتمع ومصدر تماسكه، والإطار المرجعي لمنظومة القيم فيه، والإطار الذي يعبر الشعب من خلاله عن ذاته، ومن خلالها يتم تجسيد الفكرة المطلقة التي يؤمن بها الفرد في التاريخ وكأن هذه الدولة الحديثة جداً قائمة منذ خلق الله البشرية. يرصد نشأة الظاهرة وتطورها واستقرارها واقعاً وكأنها أصبحت مسلمة. بمعنى أنه يريد القول بأن كل دولة تصبغ من تحتها بصبغتها شاء أم أبى. يؤكد ما مضى من الادعاء بأن كل يهودي اصطبغ بصبغة البيئة التي وجد فيها!!

والحقيقة أن الدولة القومية أداة للعلمانية، أو: لمنظومة قيم (عقيدة) حديثة تشكلت على أنقاض التدين المسيحي وفي مواجهة الإسلام كقوة فاتحة وكثقافة سائدة. فالدولة القومية القائمة على الحدود الجغرافية مرحلة من مراحل تمكن العلمانية، أو أحد أدواتها، ومؤخراً بدأت تتطور من الحدود الجغرافية إلى الحدود الافتراضية (نفوذ الدولة). كما أن الدولة اليهودية استثناء، بمعنى أنها ليست دولة قومية لا دينية، وإنما دولة ذات أبعاد دينية مطلقة. وأحد أدوات تحقيق الحلم

¹² "الصهيونية والحضارة الغربية" ص 43، 44.

المشيحاني، كما يذكر هو¹³. وعلى مرّ العصور كان ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها ضعيف إذا ما قورن بولائهم لدينهم كما ذكر الدكتور المسيري على لسان "بلفور"¹⁴.

التقليل من المؤامرة:

سواءً من اليهود أم من غيرهم ممن كرهوا ما أنزل الله. ويشتد في هذا الأمر بدعوى أن في القول بالمؤامرة تضخيم للعدو وتحقير للذات، وبدعوى أننا لو سلمنا بوجود المؤامرة، وخاصة المؤامرات الكبرى، لوجب علينا أن نستسلم لهذا الذي يمكر مكرًا كبيرًا. وكأن القول بوجود المؤامرة يستلزم القعود والاستسلام!!

والمؤامرة من قبل الخصوم حق ذكره الله العليم الخبير في كتابه، يقول الله تعالى ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (الطارق:7)، و يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: 46). وفي سياق بيان ما يدور بين الملأ (النخبة) والأتباع حين يلتقون يوم القيامة يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالتَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾. فالقوم يمكرون، مكرًا نزول منه الجبال، مكرًا كبيرًا، وهذا يقول: لا مكر.. لا مؤامرة.

والواقع أن المصريين هزموا يهود في الاستنزاف وفي أوائل حرب أكتوبر 1973م، وانتصر عليهم أهل الأردن وفلسطين في معركة الكرامة وانتصر عليهم من قاتلهم من السوريين في بداية حرب 1967م وحرب 1973 وانتصر عليهم من قاتلهم من لبنان، وانتصر عليهم رجال "حماس"، ولم يحجم أحد عن قتالهم بدعوى أنهم خارقون للعادة، لم تسوق البروتوكولات بهذه الدعاوى مطلقًا، فهذا الوهم فقط في صدر المسيري. وإنما انتشرت البروتوكولات في سياق الحديث عن العلو الثاني لليهود والذي هو (أي العلو الثاني) بداية زوالهم. وفي ذات السياق انتشر الحديث عن أن هزيمة

¹³ص 45 من كتابه "الصهيونية والحضارة الغربية".

¹⁴(ص 53) من ذات الكتاب.

اليهود على يد عبادة الله يقاتلونهم حتى يختبئون خلف الشجر والحجر فينطق الشجر والحجر ويدل على من اختبأ خلفه من اليهود، وهي بشارة وليست تقاعد وسياق من المواجهة تحت مظلة الدين. ولكن الدكتور المسيري، كالعادة، يفتعل قضية وهمية ويضخمها.

ثانياً: نهضة الأمة!

كثيراً ما يردد الدكتور عبد الوهاب المسيري بأننا لا نستطيع أن نهض كالغرب إلا إذا مررنا بمرحلة احتلال لغيرنا من الشعوب.. كما فعلوا هم. يشير إلى أن الغرب نهض على أكتاف غيره من الشعوب التي احتلها ونهب ما فيها من ثروات معدنية وبشرية.

وحين تدقق النظر في حال الغرب (أوروبا، ثم الولايات المتحدة تحديداً) تجد أنهم نهضوا بأربعة لا بواحدة:

أولها: وجود رؤية خاصة بهم. تأسست على العداة للدين. ربما لأنهم واجهوا غزاة (العثمانيين) ولم يواجهوا فاتحين كما حدث في العراق والشام وشمال أفريقيا والأندلس (من واجهوا الصحابة والتابعين).

وثانيها: حصولهم على أسباب مادية من: غزو دول أمريكا الجنوبية والحصول على الذهب والفضة، والتجارة مع الهند وغيرها من دول المشرق (العصر الميركانتي)، ثم احتلال العالم الإسلامي والسيطرة على موارده وأسواقه، وهذه التي يعينها الدكتور المسيري، وهي فقرة تابعة وجزء من منظومة صعودهم وتمكنهم، وليست وحدها، ولا تصلح لتقدمنا فنحن أمة رحمة، نقدم للناس أخلاقاً، والقتال عندنا لا يصحبه نهب بل نزع الحقوق من المستبدين ونعطيها لأهل الأرض.. يوزع المال في أهل المكان.. يمكن الإنسان مما قدره الله في الأرض من بركات دون نظر لونه أو جنسه، ولا يربط الإسلام بين الإنسان والأرض التي يسكن عليها كما تفعل الدولة القومية فالإنسان حر الحركة يستوطن ما يشاء من أرض الله.

وثالثها: انهيار منظومة القيم الإسلامية، ثم تبدها. وهذا من أهم العوامل في تخلفنا واستمرار تفوقهم، وقد كان بدء الانحدار من فقدان الإنفاق على العلم وأهله بعد تحول طريق التجارة.

جاءوا إلينا ونحن معدومين مادياً وفكرياً، ثم عمدوا إلى إحداث تحولات جذرية في منظومتنا الفكرية حتى صارت تبعاً لهم، ولذا تجد بين المنتسبين للفكر الإسلامي من يطالب بنهوض كنهوض الغرب، بل تجد من المنتسبين للصحة الإسلامية من ينتصر للمناهج الغربية ويرى أن الديمقراطية هي نهاية التاريخ.. يرى أن البشرية تتطور منذ خلقها الله في خط مستقيم صاعد، وأن ما عليه الغرب الآن هو الرشد¹⁵!!

وكان الله لم يقيم السموات والأرض على الإيمان والكفر، وكان الله لم يهلك السابقين بكفرهم بالله، وكان الذين سادوا اليوم أشد قوة من الذين كانوا من قبلهم، وكأنهم سبقوا. والله يقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ۖ﴾ (مريم: 74)، (أَوَّمَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) (فاطر: 44). ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ (التوبة: 69).

ورابعها: القتال الداخلي بين المسلمين، وذلك منذ ظهور الصفويين في إيران، والمماليك في مصر، والعثمانيون في آسيا الوسطى، حيث تعددت القوى الإسلامية وقاتلت بعضها، بل واستعان بعضها بالآخر على بعضها، وقد أدى ذلك إلى استنزاف طاقة المسلمين من ناحية وإلى التوقف عن الفتوحات من ناحية أخرى.

وحتى يتضح لك أكثر أن المسيري لم يخرج عن دائرة الغرب، وأن النهوض الذي يتحدث عنه هو التحديث على قواعد غربية، حتى يتضح لك هذا الأمر جلياً اطرح معي هذا السؤال: هل نسير في اتجاه استعادة نموذجنا الحضاري أم ننافسهم على ما في أيديهم!!؟ وفتش عن إجابة من الأفعال لا من الأقوال. وسترى بوضوح أن النخبة الفكرية (المثقفة) تنافس الغرب على ما في يديه. والنتيجة أنها تسير في ركابه.. تسير إلى حيث يريد هو، وإن كانت تعارضه بلسانها!!

¹⁵ من هؤلاء جاسم سلطان، ينظر محاضراته "كيف نفهم التاريخ؟"

ثالثاً: العلمانية الجزئية:

من منطلق عقلي بحث رجب المسيري بالعلمانية الجزئية أو العلمانية في بعض مناحي الحياة (الحكم تحديداً) دون بعضها، ولا أريد مناقشة هذه الفكرة، التي طورها المسيري من مخرجات الشيخ شلتوت ومدرسة العصريين فيما يبدو لي، من منطلق الجواز وعدمه.. لا أريد القول أن العلمانية الجزئية لا تجد مسوغاً شرعياً في كتاب أو سنة، فالدين مهيمن لا يخرج عنه شيء من فعل الإنسان، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلاً ۝١٢﴾ (الإسراء: من الآية 12) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ أَذِنَ لَكُمْ ؕ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ ۝٥٩﴾ (يونس: 59). فالقانون نص وسلطة تعطي النص صفة الإلزامية، ولا بد أن يكون النص وسلطته من الله سبحانه وتعالى وعز وجل. فقط أريد الإشارة إلى أن العلمانية الجزئية غير ممكنة في ظل الدولة القومية الحديثة التي تهيمن على جميع مناحي الحياة، بما في ذلك المجال الخاص (الأسرة) بل وتسيطر على المساجد سيطرة تامة. بمعنى أن انفكاك السلطة عن المجتمع غير متصور في حضور الدولة القومية التي تفرض نفسها على تفاصيل ما يحدث في المجتمع. وغالب الظن أن الفكرة تكونت بشكل نظري في داخله، أو قفزت إليه من شيوع حديث العصريين ابتداءً من محمد عبده ومروراً بالشيخ شلتوت¹⁶، ودعا إليها كحل وسط يتوافق عليه الطرفان. ولو أنه تأمل قليلاً في هذه الفكرة ما تحدث بها. لو تأمل قليلاً لعلم أن كل نموذج (نسق عقدي) يسعى للسيطرة التامة ولا يرضى بغيره إلا تابعاً له.

وقد استخدمت هذه الفكرة (العلمانية الجزئية) في مد الجسور بين العلمانية والصحة الإسلامية، وذلك أن الخطاب العلماني يستهدف دفع الحالة الصحوية في اتجاه قبول العلمانية، ويسمون هذا النوع من الخطاب بالخطاب الإصلاحية؛ ومن أهم العقبات التي تواجههم: عدم التفات الصحويين لهذا الخطاب، لا بالاطلاع ولا بالنقد والتحليل فضلاً عن القبول، فالحالة الصحوية مغلقة وتمتد

¹⁶ تتوافق أطروحة العلمانية الجزئية بشكل كبير مع أطروحات الإصلاحيين في الأزهر الشريف. وأفضل ما يمثل هذه الأطروحات كتاب الإسلام شريعة وعقيدة للشيخ محمود شلتوت.

فكريًا وعداديًا من الداخل للخارج؛ والتحويلات والتغيرات التي تحدث فيها تأتي من الداخل.. ينصتون لأبنائهم ولمن تحلى عن العلمانية والتزم درب الصحة كسيد قطب، وأما أولئك الذين لا ينتسبون إليهم فيرتابون منهم ويهاجمون أشخاصهم، ويعرضون عن بضاعتهم، ويتهمون من ينصت إليهم بالابتداع. كحال الأنساق المغلقة في كل زمانٍ ومكان.

نعم تعمل العوامل الخارجية (مثل: أسئلة العلمانية، والقمع الأمني، والفرص التي يفرضها النظام الإقليمي والدولي) كمحفز، أو كمثير، ولكنها لا تعمل أبدًا كدافع أو كمتغير مستقل في التحويلات والتغيرات التي تحدث للصحة.. يظل الخطاب الداخلي هو الفاعل الأساسي.

وتتعامل الصحة مع أسئلة العلمانية (كالمواطنة، والتشريع من خلال مجالس نيابية، وتناوب السلطة... إلخ)، برجماتيًا، بمعنى أنها تجيب حسب وضعها على الأرض قوةً أو ضعفًا، وحسب حاجتها لأدوات العلمانية. وتتجاوب، فقط، مع الأدوات (مثل المشاركة في المجالس النيابية، والمجالس المحلية، والنقابات... إلخ) لا القيم والفلسفات التي تقوم عليها هذه الأدوات. ولذا يظهر ازدواجية في الخطاب. فمثلًا: تتحدث عن الديمقراطية بخير في المحافل العامة وتلعنها في بيتها حال حديثها مع أبنائها. وتتحدث عن الوطن والوطنية بخير في المجال العام وبين أبنائها تقول بقول ربما: (أمتكم أمة واحدة)، أو تبتدع دليلًا مثل القول بأن الإسلام عرّف الدولة المستقلة ضمن إطار الأمة. ومن يقل منهم بهذا يعلم قبل غيره أن الدولة القومية لا هي من الدين ولا من التاريخ وإنما أداة علمانية نشأت حديثًا، والدولة القومية لها شريعتها الخاصة والتي تتحكم في كل شيء، ولها منظومة ثواب وعقاب خاصة، ولا ترضى بغيرها شريكًا لها بل تابعًا منزويًا في ركن من أركان الحياة، ويومًا بعد يوم تدخل عليه وتأخذ بعضًا مما في يديه، وتظل هكذا إلى أن يتحول مخالفتها إلى كيانٍ ضعيفٍ تابعٍ يتحرك بحركتها، والدولة التي ظهرت في الإسلام لم تتجاوز حد استيلاء بعض الأشخاص على الحكم في بعض الأماكن دون إحداث تغيير جوهري في نظام الحكم.

وفي الفجوة بين الصحوة والعلمانية تقف العلمانية الجزئية التي تحدث عنها الدكتور عبد الوهاب تحاول مدّ الجسور بين الخصمين اللذين اختصما في رهم. ومؤخرًا ظهرت أوراق بحثية تدعو إلى تفعيل أطروحة العلمانية الجزئية من أجل تطوير الخطاب الصحوي، بمعنى جذب الحالة الصحوية للعلمانية عن طريق قنطرة "العلمانية الجزئية"، أو للمنطقة الوسط التي يقف فيها إصلاحيو الأزهر وإسلامية المعرفة (العصرانيون)، كمرحلة وسيطة لتطوير الفكر الإسلامي إلى السياق العلماني تحت مسمى "التجديد" أو "العصرنة" أو "إعادة بناء العقل العربي"، أو "حتمية الواقع". وهذا سياق يتزايد يومًا بعد يوم، وقد يتحول إلى تيار بفعل الروافد الكثيرة التي تصب فيه. وهو السياق الذي جمع بين الضدين مثل الدكتور محمد عمارة، ويوسف زيدان في الحديث عن شيخ الإسلام بن تيمية، اجتماعاً على القول بأن شيخ الإسلام "لم يكن على الهيئة التي تحدث عنه بها السلفيون" وقد جاءوا ظلمًا وزورًا¹⁷.

وظهر أثر التوسط بين العلمانية والإسلام في المشاركة في عدد من الموافقات الفكرية، والتي أوجدت منظومة قيم وسط بين الإسلام والغرب، بمعنى زحزحة القيم والمفاهيم لمنطقة الوسط وأستحضر ثلاثة أمثلة:

المثال الأول: ادعاء أن القيمة العليا في الإسلام هي العدل. والعدل مفهوم نسبي، فكل يرى نفسه عادلًا، حتى جبابرة اليوم، أولئك الذين ينشرون الخوف والجوع والمرض بأسلحتهم وبضائعهم وثقافتهم، يرون أنفسهم أهل عدلٍ ودعاة محبة وسلام. والقيمة العليا عندنا هي عبادة الله وحده لا شريك له، وتعبيد الناس له، يقول الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:56) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:25)، وكل آي القرآن الكريم تعرف الناس برهم ومراد الله منهم، فاستحقاق الله العظيم الكبير المتعال للعبادة وحده لا شريك له هو محور الرسالة. وباقي القيم أثر من آثار التوحيد.. ثمرة من ثمراته. فنحن نعطي الناس حقهم لأن الله أمرنا بهذا ﴿وَلَا

¹⁷ ظهر مدافعًا عن شيخ الإسلام بن تيمية في أحد البرامج (رفقة عمرو أديب).

تَبَخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾، ونفعل هذا طلبًا للأجر من الله. نرجو ما أعد الله من ثواب للطائعين ونخشى ما توعد به العاصين من عذاب الجحيم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ (الروم: 15-16).

والمثال الثاني: القول بأهمية العمران (البناء والتشييد)، أو أن الله استخلف الإنسان في الأرض من أجل عمارتها، ويفسرون العمارة بالبنيان. ويستدلون بقول الله تعالى: "إن جاعل في الأرض خليفة"، وقول الله تعالى: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها". ويفسرون العمران بالبنيان، ما يشيده الإنسان من أبنية على ظهر الأرض، أو هذا ما يستقر في حس من يقرأ نصوصهم.. العمران المادي. مع أن ذات الآية تبين أن الخلافة لا تعني التعمير فقط بل الفساد وسفك الدماء (أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء). وفي الآية الثانية أمرهم نبي الله صالح، عليه السلام، بعبادة الله أولاً ثم بالاستغفار والتوبة، "وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعِفُّوهٗ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ"، وعلى لسان ذات النبي الكريم، صالح عليه السلام، ذم البنيان ﴿وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ (الشعراء: 149)، وكذا ذم البنيان على لسان هود عليه السلام ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (الشعراء: 128-129)، وثبت مثل هذا (ذم البنيان) عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أحاديث كثيرة. فالخلافة لا تعني تعمير الأرض بإنشاء المدن والتطور في البنيان وإنما معرفة الله وعبادته، والتعمير بالبنيان يأتي ثمرة لذلك.

وإن جعل العمران هدفاً أمر حادث لم تعرفه البشرية من قبل، والذي جلبه إلى ساحتنا هو جمال الدين "الأفغاني" كما يروي ألبرت حوراني في كتابه تاريخ الفكر العربي في عصر النهضة؛ فلم تكن البشرية تهتم بالعمران كقيمة في حد ذاته إلا بعد ظهور العلمانية الرأسمالية، فكل حضارة لها ما تعظمه من قيم، وقد كان أهل الجاهلية يعظمون الكرم والمروءة والشجاعة، ثم جاء

الإسلام وعظّم التقوى، ثم جاءت العلمانية الملحدة وعظّمت الاستهلاك، ووطنته في كل شيء، ودخلت علينا هذه القيمة بعد أن غلبونا وخالطونا.

وإن العمران ترجمة للقيم التي أنتجته. فطريقة البناء تخضع للمفاهيم والتصورات من ناحية وتدعمها من ناحية أخرى. فالمفترض أننا نشيد (نبي) على الأرض ما نستعين به على عبادة الله.. فالمساجد وشكل البيوت (مفتوحة للخارج أم للدخل) ومكان السوق بجوار المسجد أم بعيداً في الخلاء، وشكل السوق، ومحتوياته،، إلخ.

وإن العمران اليوم أحد أدوات السيطرة والتوجيه، ويصعب قراءة النشاط العمراني (بمعناه الواسع) في إطار تحقيق رفاهية الإنسان.. كل الإنسان، وإنما أحد أدوات الاستحواذ على أسباب السيطرة والنفوذ من قبل النخب الحاكمة!

والمثال الثالث: القول بتقديم المقاصد على الأحكام. وهي من المحدثات في الدين، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. بدأت هذه البدعة مع "الشيخ" محمد عبده حين استخرج كتابات الإمام الشاطبي (الموافقات) ليقول بالمقاصد ويكسر الجمود السائد في الحالة الدينية الرسمية (الأزهر) يومها¹⁸ ثم تطورت الفكرة من بعده في اتجاه سلبى. وذلك أنهم ثبتوا مقاصد فضفاضة شديدة المرونة ومجملّة لا تفصيل فيها، وتتوافق مع القيم الإنسانية العلمانية التي توافقت على أغلبها أهل الكفر. وراحوا يتحدثون بأن هذه المقاصد تضبط الأحكام (كأنها قواعد فقهية كلية).

وهذا قولهم. **ومن يتدبر يجد أن المقاصد تؤخذ من الأحكام وليس العكس كما يحاول هؤلاء.** فمثلاً: نقرأ أحكام الشريعة في الزنا وما اتصل به (كالملاعنة، الجلد، والرجم)، ثم نقول: مقصد الشارع في حدّ الزنا هو الستر لا فضح الناس وهتك أسرارهم. ونقرأ الحدود ثم نقول: مقصد الشرع من الحدود هو زجر الناس وصرفهم عن الشر ودفعهم إلى السعي فيما ينفعهم ولا يضر غيرهم. أما ما يفعله هؤلاء فهو في حقيقته عبارة عن محاولة لجرجرة الشريعة في وادي العلمانية..

¹⁸ أجهض الاحتلال الإنجليزي لمصر صحوة كانت قد سبقت مجيئهم، وكان من ثمرتها التجديد في الكتابة والشعر (البارودي وشوقي والنديم،)،

إلى ساحة الدين الجديد (دين الإنسانية) الذي يتكون من أخلاطٍ شتى بعضها إسلامي!!؛ فهم يقولون: المقاصد، ثم يتحدثون عن كليات عقلية شديدة المرونة، تلتقي مع كليات العلمانية الغربية أو تكاد، ثم ينقلبون إلى الأحكام ويحاولون تعديلها في ضوء هذه المقاصد الفضفاضة!!

رابعاً: البعد عن الوحي كتاباً وسنة!

لا تكاد تجد المسيري يستشهد بآية أو حديث، وعامة ما يقدمه مقولات نقدية من سياق النقد الغربي للحدائثة (المادية/ الإلحاد الصلب). وكأنه إيمان عقلي، وهنا نقطة محورية، وهي أن القرآن الكريم واضح بيّن في نفسه ومبين لغيره. يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَتَى اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾⁽¹⁹⁾، ويقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽²⁰⁾، ففي القرآن الكريم بيان وتفصيل لكل شيء، يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾، ويقول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾⁽²¹⁾. ولذا فإن القرآن الكريم يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه يقول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾⁽²²⁾.

والسنة وحي منزل كما القرآن الكريم، يقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾⁽²³⁾، ويقول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهِ﴾ وكل نبي أوتي كتاباً وحكمة (سنة شارحة) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَاتِيْتُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾⁽²⁴⁾. وقد أمرنا في كتاب الله أن نتبع النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ

(19) سورة الحج: آية ١٦.

(20) سورة النور: آية ٤٦.

(21) سورة الإسراء: من الآية ١٢.

(22) سورة البقرة: آية ٢١٣.

ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهْتَدَوْا ﴿٢٣﴾، و"معناه فإن آمنوا بجميع ما آمنتم به أي أتوا بإيمان كما يمانكم وتوحيد كتوحيدكم"، (24)، "والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته" (25). ويقول الله تعالى ذكره: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ﴾ (26)، والمقصود بمن اتبعوهم بإحسان "من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة" (27). فالنص عندنا هو هذا كله: القرآن الكريم والسنة الصحيحة وفعل الصحابة ﷺ عليهم.

ومن النص بهذا المعنى انبثقت علوم خاصة بالشريعة الإسلامية. كالتفسير، والحديث، والفقه، واللغة العربية. وكل علم له أصول وقواعد يُضبط بها ويسير عليها من غني بهذا العلم. وتم ضبط هذه الأصول والقواعد كتابةً ومدارساً شفهية (إجازة). فتراثنا مدون (مكتوب) وليس تراثاً شفويًا فقط. بما في ذلك القرآن الكريم: فهو قرآن ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ نَّجِيدٌ ﴿٢٨﴾﴾، وهو كتاب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٩﴾﴾. وهذا الأمر مضطرد، بمعنى أن كل نموذج معرفي (منظومة عقديّة) له منهجيته الخاصة في فهم الظواهر المتعلقة بالتدين وغيره (30). والمنظومة العلمانية المعاصرة أفرزت

(23) سورة البقرة: آية ١٣٧.

(24) ينظر "معالم التنزيل" للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع،

1417هـ/1997م)، ج 1، ص 156.

(25) ينظر: "الجامع لأحكام القرآن" للإمام محمد بن أحمد القرطبي، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)،

ج 2، ص 142.

(26) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(27) ينظر: "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، الرسالة، 1420هـ/2000م)، ج 23،

ص 373.

(28) سورة البروج: آية ٢١.

(29) سورة البقرة: آية ٢.

(30) من النماذج المعرفية تخرج المنظورات، ومن المنظورات تتكون المفاهيم، ثم المقولات التفسيرية، ويتجمع عدد من المقولات

المتناسقة لتكوين نظرية توصف وتفسر الظواهر الاجتماعية. ينظر: "مناهج البحث في العلوم الإنسانية: بين علماء الإسلام

وفلاسفة الغرب" لمصطفى حلمي، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2005). وقدمت نموذجًا تطبيقيًا لهذه المسألة بالتفصيل في

الفصل الأخير من كتابي "مناقشة هادئة لإسلاميات عباس العقاد".

أدوات خاصة بها في البحث العلمي، ولأن العلمانية متطورة ومتغيرة بشكلٍ دائمٍ حسب أهواء أهل كل زمان ومكان ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، والإسلام ليس كذلك، عندنا منهجية ثابتة نزل بها الروح الأمين على قلب محمد ﷺ. فكلما نزلت نازلة تأملناها جيداً ثم رجعنا لنمذجنا الأول نستضيء بنوره ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. أقول، في نفسي،: لو أنه فتح المصحف وراح يتدبر ما أنزل الله من الكتاب والحكمة (السنة)، لشفي صدره في ساعاتٍ قليلة في أمر يهود وغير يهود، ولربما جلس في ظلال القرآن الكريم وراح يبث خواطراً عطره، كما جلس سيد قطب ومصطفى محمود والشعراوي، وكل من الثلاثة كان في التيه كما قد كان هو!

خامساً: قضايا خارج سياق الزمان والمكان.

عَرَّفُ المسيري في البيئة وما فيها³¹، جعله يتبنى قضايا وهمية شغلتنا ولم تنفعنا بل نفعت الغرب، فقد أشعل حرباً على المادية الغربية.. الإلحاد التام، أو الإلحاد الصلب.. هذا الذي لا يؤمن بإله ولا بغيبيات عمومًا، مع أن هذا النوع من الإلحاد هُزم من عقود في الغرب. هذا النوع من الإلحاد أصبح ماضيًا، وظهر على أنقاده التيارات القيمية (النقدية) في الحضارة الغربية. كما أن هذا النوع من الإلحاد، حين كان منتشرًا، لم يستطع أن يتمكن في المجتمعات المسلمة، وظلَّ في صدر عددٍ قليل من غلاة الشيوعيين.. وظلَّ منبوءًا من عوام المسلمين قبل خواصهم، فلم يتفاعل المسلمون مع الشيوعية إلا في البعد الاجتماعي وسرعان ما فارقوها حين ظهرت الأبعاد الإلحادية للماركسية المادية³². ومع أننا لا نواجه إلحادًا صلبًا كالذي تحدثت به الماركسية وإنما نواجه إلحادًا

³¹ تحول المسيري من المادية الماركسية إلى السياق الإسلامي عن طريق النقد للظواهر والأفكار العلمانية وخاصة المادية

الماركسية، وتوافق، بقصد أو بدون قصد، مع المدارس النقدية الحديثة في الحضارة الغربية، وعُني بتفسير ظهوره اليهود في السياسة الدولية وتجمع عانتهم حول بيت المقدس؛ وأهم ما يمكن رصده في سياق المسيري هو

³² امتازت الشيوعية بكثرة التفريعات فيها، حتى في عصر مؤسسها، وفي الوطن العربي ظهرت اشتراكية عربية عنيت بالجانب الاجتماعي وتجاهلت، بنسبة كبيرة، الجوانب العقيدية للشيوعية الماركسية، ثم حدثت حالة من التحول إلى الإسلام بين من

"مؤمنًا"، فالملحدود عندنا من المنتسبين للدين، ويتجمع كثير منهم تحت شعار "مؤمنون بلا حدود". ولذا تجد هؤلاء الملحدون يستشهدون بالمسيحي ويثنون عليه خيرًا يرون أنه قريب منهم. وفي هذا السياق نَقَلَ المسيحي مخرجات علي عزت بيجوفيتش وأعاد توطينه عندنا، وعزت بيجوفيتش خاض معركة مستحقة في وقته مع المادية الغربية ولكنها معركة انتهت أو انزويت. ومعركة ليس لها سياق عندنا.

وَنَزَعَ الصبغة الدينية عن الصراع مع اليهود وكأن الصراع معهم صراع سياسي، فمن ناحية قاوم اليهود ومن ناحية خدمهم وخدم العلمانيين بإخراج البعد الديني من الصراع!!

إن من أهم أمراض النخبة المعاصرة تبني قضايا خارج سياق الزمان والمكان، قضايا تستهلك قدرات الناس مع قليل من الفائدة. وهي حالة من الاغتراب أو الهروب تحت ضغط الواقع. وهذا الهروب يمارسه كثيرون وليس فقط المسيحي، فمثلاً: السلفيون مع "التشيع/الرفض". فحين تتأمل سياق تعاطي السلفيين مع الرفض تجد أن كثيراً مما يقولون يمكن أن نضعه في خانة الهروب.. أو البحث عن موضوع بعيداً عن حر السياسة والتصدي للاستبداد، أو بعيداً عن مواجهة العوام بما هم فيه من فسق وتخلف. وإن تأثير العوام (الجماهير) كتأثير السلطة أو يكاد. وذلك أن الحرص على الوجاهة والتصدر والنفع المادي أشد من الحرص على السلامة والأمن الشخصي؛ وبعضهم لا يستطيع أن يصمت وينصرف إلى مصحفه وأذكاره والاعتناء بأهل بيته.. ولذا يتجه لما هو آمن سلطوياً وجماهيرياً بحثاً عن ذاته أو رضاً بما هو أدنى. لذا فإن عامة القضايا الثائرة اليوم تجدها هنا.. تحت مظلة الأمن السلطوي والجماهيري، لا تحت مظلة ما ينبغي فعله نصره للدين وتمكيناً للمستضعفين. وتكون المحصلة إضاعة الجهد والوقت والدخول في حسابات القوي (التوظيف وخاصة من أصحاب المال وأصحاب السلطة).

تأثروا بالفكر الشيوعي كالأستاذ عادل حسين ورفاقه في صحيفة الشعب، وذلك حين درسوا الإسلام وعلموا أن تحقيق العدالة الاجتماعية من مبادئ الإسلام أفضل. (ذكر ذلك لي روية عن الأستاذ عادل حسين الدكتور محمد عباس).

ومن الأمثلة، أيضاً: اهتمام السلفيون الزائد ببعض الشعائر في الثياب ونحوه. ومن الأمثلة، أيضاً: انتشار الحديث في "التدبر" والاهتمام بالتحفيظ. فبعض ذلك هروب واغتراب، تماماً كما التعاطي مع الرفض وقضايا التعبد الفرعية. والحمد لله أن الناس تفر لكتاب الله، وبارك الله لكل من شغل بكتاب الله تلاوة وتدبراً، وحفظاً وتحفيظاً. ولكني أرصد حركة الفكر والاهتمامات. والمقصود أن عملية الهروب من الواقع وتضخيم بعض القضايا عن حجمها الحقيقي ومحاوله إثبات الذات أو إنفاق فائض الوقت في شيء قليل الفائدة كثير ومنتشر، وهو من مظاهر قلة البركة في الأوقات والأعمار. ومن أهم أسباب هذه الظاهرة غياب البعد التعبدي، فلو أن أحدنا علم أنه إما أن يقدم نافعاً أو يرجع لمصحفه ومسجده يناجي ربه ويصلح من شأن نفسه لارتحنا من كثير ممن لا ينفع، فالكل اليوم مشغول وحين تفتش تجد أن الخير في أن يكف عما يشغله.

الفائدة في التفاصيل:

مما يظهر لي بوضوح بعد التأمل في أطروحات نخبة المثقفين.. أولئك الذين يقدمون أطروحات فلسفية تُعنى بالتأسيس (التأطير النظري)، مثل ديورانت، وتوينبي، وابن خلدون، ويلحق بهم بعض المعاصرين من أمثال عبد الوهّاب المسيري وعباس العقاد وجمال حمدان، أنهم يقدمون فائدة في التفاصيل وانحراف في السياق العام.

فمثلاً ديورانت في السياق العام يتكئ على مقولة ابن خلدون "حتمية البيئة" أو ارتباط الوحي بالزمان والمكان الذي ظهر فيه، أو أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، ابن بيئته، وأن البعثة المحمدية مجهود ذاتي من شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفي التفاصيل يمتدح النبي، صلى الله عليه وسلم، ويثني عليه. ولذا فإن من يتعامل مع تفاصيل ما قدّم ديورانت دون السياق العام يظن الرجل منصفاً يثني على الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولكنه في الحقيقة يحاول نزع صفة الرسالة عنه، صلى الله عليه وسلم.

ومثله عباس العقاد: يقدم الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أنه عبقرى لا كرسولٍ من الله،

والله يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وفي التفاصيل تجد ثناءً عطرًا على شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، كعبقري.. لا كرسول من الله!

وكذلك المسيري في السياق العام يخوض معركة وهمية ضد المادية الغربية الصلبة والتي انحصرت وكادت تنتهي، وما يمارسه من نقد هو سياق غربي تولد في السبعينات مع ظهور المدرسة الإنجليزية ونشاط المدرسة النقدية (الفرانكفونية). كانت معركة مستحقة يوم كان الغرب لا يعرف إلا المادية البحتة.. كانت معركة مستحقة قبل أربعين عامًا.. يوم انتصب في وجههم بيجوفيتش، أما الآن فالصراع مع النسبية التي بشر هو بها. وأعتقد أنه يعي ذلك تمامًا ويأتيه من وقتٍ لآخر، وربما يحاول الانتفاص من الغرب وتنفير الناس منه بما يستطيع التحدث فيه.

وكذلك الدكتور جمال حمدان: في التفاصيل والصياغة فوائده جمة، ولكنه في السياق يضخم الذات المصرية. وإذا سلمنا للدكتور حمدان بعبقرية المكان المصري على المكان اليمني والصومالي وآسيا الوسطى، فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن أن مصر دولة قومية، تعاني (كدولة قومية) من عددٍ من المشاكل المزمنة، مثل: التعددية الإثنية والدينية والطائفية؛ وكثرة الإنفاق على بعض المجالات دون بعضها (الأمن، الترفيه: فن كورة،،)، والضعف وعدم القدرة على الفعل أو عدم القدرة على حل المشاكل الداخلية، وذلك بسبب التجزئة، وقلة الموارد، أو كثرتها³³؛ وتغول السلطة، والتماهي بين نظام الحكم ومؤسسات الدولة، حيث لا يوجد مسافة بين النخبة الحاكمة ومؤسسات الدولة، والذي أدى إلى تهميش المجتمع المدني.

من يخاطب المسيري ورفاقه؟

قدّم الدكتور علي جمعة إجابة مباشرة على هذا السؤال في أحد الندوات الثقافية التي جمعتها بالدكتور المسيري فقال: "ما يقدمه المسيري نقد للمنظومة الغربية من داخل المنظومة الغربية ولصالح

³³ تشكل كثرة الموارد عائقًا حين لا يكون لدى الدولة قدرة على الحفاظ عليها: ليبيا (ساحل ممتد وعدد سكان قليل)، وقطر (عوائد البترول والغاز).

المنظومة الغربية"³⁴. وهذا الوصف دقيق جداً، فالدكتور المسيري نبت داخل السياق الغربي ضد بعضه لصالح بعضه الآخر.. واكب فترة انحسار السلوكية (التحليل الإمبريقي) وظهور المنظورات ذات الأبعاد القيميّة داخل الغرب (المدرسة الإنجليزية، والبنائية، وتمدد المدرسة النقدية [الفرانكفونية الألمانية])، وعمامة أفكار المسيري تطوير (أو إعادة تصنيع) لأفكار النقاد من الغربيين كما يذكر هو. والنقد داخل المنظومة الغربية شيء طبيعي. بل مفيد لهم. وذلك أن النقد أحد أهم أدوات تطوير الواقع والإفادة منه وليس هدمًا كما نفسره نحن. لذا يرحبون به. فالنقد أداة تطوير وليس أداة هدم، وهو كذلك طالما يعمل داخل إطار المنظومة. ولذا نجد أجيالاً من الجدالات بين المنظورات الكبرى في الغرب.. حين يتغير الواقع يتجهون لنقد المنظورات القديمة وما انبثق عنها من نظريات تفسيرية وتطبيقات عملية ويستحدثون غيرها مواكبةً للواقع الجديد. فهم ينقدون أنفسهم للتصحيح، أو للهدم وإعادة البناء. ولذا ينخدع نفر من المعارضين لهم بما يصدر من بعض المفكرين الغربيين عن خلل في دولة ما أو عن قرب أفول الحضارة الغربية؛ وغالبًا ما تستهدف هذه الأطروحات دلالة التنفيذيين على مواطن الخلل من أجل التصحيح. ولك أن تلاحظ انتشار الكتابات التي تبشر بأفول الحضارة الغربية وفي ذات الوقت نجد أنهم يجتاحون العالم شرقًا بثقافتهم وشركاتهم وجيوشهم، وبالفعل هضموا أمّا بأكملها، وحتى مجتمعاتنا المسلمة تتطور في اتجاه غربي.. في اتجاه انحلال خلقي وديني كما هو حالهم.

إن العالم كله يتحرك بعنف في اتجاه معاكس للإيمان ويدفع الذين بداخله دفعًا إلى حيث لا يعلمون، ولن يتوقف هذا التطور المنفلت إلا بحضور المؤمنين بالله وما أنزل على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

³⁴ ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=Gv_j4Ne0iSC8 ، والدكتور وائل حلاق، في أحد لقاءاته التلفزيونية، يفرق بين النقد والانتقاد، فالنقد عنده هدم كلي وإحلال جديد، والانتقاد تطوير عن طريق ذكر السلبيات من أجل إصلاحها.

سادساً: أدوات الانتشار.

وجد المسيري مساحة لأنه توسط في أفكاره ومواقفه بين الصحوة الإسلامية والعلمانية. والناس بطبيعتها تميل لمن يتوسط بين متصارعين³⁵.

ووجد المسيري مساحةً لأنه تبنى أم القضايا الثائرة (المقاومة الفلسطينية واحتلال بيت المقدس) وهي قضية جماهيرية، مثلت أحد أهم أدوات جذب الجماهير حتى عند الذين يقاتلون الداخل الإسلامي؛ ووجد مساحة لأنه استخدم لغة سهلة مليئة بالبشارة، فقد كان يبشر بزوال الكيان الصهيوني كما زال الكيان الغربي في جنوب أفريقيا، والناس يميلون لمن يبشرهم وإن كان يخالف الحقيقة، وذلك أن قلة قليلة من العقلاء هي التي تنظر في المآلات، وأغلب الناس يتوقع ما يرجوه لا ما سيكون باعتبار السنن الربانية.

ومن أسباب الانتشار أنه وقف وسطاً بين الدولة والمعارضين لها، فمن ناحية ارتبط بمؤسسات الدولة وكتب في أشهر صحفها (الأهرام)، ومن ناحية أخرى شارك المعارضة في بعض تحركاتها ضد النظام ومن منطق اجتماعي (فساد) لا منطلق إسلامي وقد وفر له هذا الخيار شريحة عريضة من المؤيدين.

ومن أسباب الانتشار ظهور إعلام خلط الأوراق في الساحة العربية، وهذا النوع من الإعلام أعطى مساحة للمعارضين للنظم المستبدة والكيان الصهيوني كالمسيري. ومن أهم أسباب الانتشار: أن أطروحات المسيري عن وجود ثلاثة ظواهر مختلفة (يهود، ويهودية، وصهيونية) والدعوة لفصل اليهود عن الصهيونية وعن اليهودية نفسها، والدعوة للتعامل معهم على أنهم بشر في الوقت الذي يواجهون مقاومة متدينة (حماس، وأخواتها وحزب الله في لبنان) مثلت دعماً - بشكلٍ ما - لليهود ومن يناصرهم، فقد كانت أطروحة المسيري تعني بدهاة نزع الصبغة الدينية عن الصراع مع يهود. وهذا أكثر ما يزعجهم.

³⁵ كتبت عدة مرات لبيان هذه الفكرة تحت عنوان: الطرح المتطرف والبعد الغائب: <https://2u.pw/UerH3C>

